خليل السكاكيني

بقلم الدكتور احمد موسى الحسيني

توفي في الشهر الماضي في القاهرة خليل السكاكيني الانسان المثالي والاديب المجدّد والمربي المبتكر والمفكر الحرّ فخسرنا بوفاته ركناً من اركان النهضة الحديثة في العالم العربي .

كان السكاكيني من الشخصيات العظيمة التي تفرض الحب والاعجاب بلا قهر ولا اغتصاب . والذين لم يعرفوه لا يستطيعون ان يزنوه حقّ وزنه من كتبه ومقالاته وحدها . فالسكاكيني اعظم من آثاره كلّها ، وشخصيته الانسانية تجلّت في حياته اكثر مما تجلّت في مؤلفاته . وادبه الحيّ الرفيع لم يَرَ الناس منه الاّ ومضات . ولو اسعفه الزمن واعانه على التعبير عن كامل احاسيسه وآرائه لبدا عملاقاً بين اقزام . وسرّ العظمة فيه ان هذا الجزء اليسير الذي تكشّف منه للناس كان كافياً للحكم على اصالته الأدبية وخلقه العالي وإنسانيته الرحبة .

★

كان السكاكيني في صباه يعدّ نفسه ليكون اديباً من طراز جديد غير مألوف في بلاده . وبدأ بداية كانت تشير الى نهاية تخالف نهايات غيره من معاصريه . ولو لم يتنكّر له الزمن مراراً ويرده على اعقابه في كثير من الاتجاهات الجريئة لكانت نهايته كاتباً من طراز الكتاب الغربيين أمثال برتراند رسل وجوليان هكسلي و ه . ج . ويلز وأضرابهم من المفكرين الذين ينحون نحو الانسانية الرحبة والعقلانية المتزنة .

كان السكاكيني منذ صباه متحرراً من الاوهام ، ثائراً على التقاليد ، مبتكراً شجاعاً ، قويّ البنية ، كبير القلب والعقل . فقي طفولته كان يجلس مع زملائه في مدرسة صغيرة في بيت المقدس . وكان المعلم يأمر الطلاب ان يحنوا رؤوسهم على الموائد التي امامهم ليشرب خلسة خمراً من زجاجة في جيبه . ولاحظ الطفل الثائر تكرار الامر فارتاب فيه وأراد ان يكشف سرّه . وأمرهم المعلم مرّة ان يحنوا رؤوسهم فحناها الطلاب . ورفع السكاكيني رأسه فجاءة وشاهد المعلم يحتسي الخمر فثار وهدّد وأرغم المعلم على الاقلاع عن تلك العادة القبيحة .

وثار السكاكيني في حياته مراراً . ثار على الاتراك وقطع الصحراء مشياً على الأقدام ليلتحق بالثورة العربية ، وقُبض عليه وسُجن في دمشق . وثار على الرهبنة اليونانية وذهب في وفد الى الآستانة وقابل الصدر الأعظم وخاطبه بصراحة وعنف طالباً رفع الضيم عن العرب الأرثوذكس في فلسطين . وثار على وعد بلفور وهو موظف في الحكومة . وسار في طليعة مظاهرة نظمها طلاب المعهد الحكومي الذي كان يدرس فيه . وثار على أدب اللفظ ثورته المشهورة التي سجلها في مقالاته التي جمعت في كتاب (مطالعات في اللغة والأدب) والتي كان طرفها الآخر الأمير شكيب ارسلان . وثار على القدر حين توفيت زوجته وهي في ريعان الشباب وحزن عليها حزناً شديداً وعبّر عن ثورته ابلغ تعبير بعبارة علقها في صدر مكتبته هي « لن نرضى » !

ومما لا يعرفه الناس ان السكاكيني كان موسيقياً بارعاً يعزف على الكمان . وكان في شبابه من فرسان حلبة الرقص . وكان ذوّاقاً للأدب في خلق الله جميعاً . قلت له مرة ، وقد جاءت فتاة حسناء الى مجلس كنا فيه : أأنت ممن يميل الى الوجه الحسن يا أبا سري ؟ فقال : الوجه الحسن ! لو أردت ان اختار لي زوجة لاخترتها اجمل الناس صورة .

والشاهد في هذا ان حواس السكاكيني جميعها ، أذنه وعينيه ولسانه ويديه ، كانت مثقفة ثقافة فنية . يطرب للصوت الجميل ويذوق مواطن الجمال فيه . وتعشق عيناه الحسن حيثما وجد . وينشد الشعر الجميل ، ويحسن صوغ العبارة الانيقة .

وفوق هذا كله كان قلبه يفيض نبلاً ورقة . كانت العصافير تضيفه في شرفة منزله ، فيضع لها الطعام والماء في اوان خاصة . ويجلس هو قربها ينظر الى نقرها طرباً .

وكان ظاهره كباطنه . لا يضمر حقداً ولا حسداً ولا تعصباً على احد من الناس . ولذا كان اصدقاؤه من مختلف المذاهب لا يميّز بينهم . أقربهم اليه اعلاهم ادباً واكرمهم خلقاً . ولم يلحظ احد انه يقيم للطائفية ادنى اعتبار . وكان دينه كدين الصوفي ابن عربي الذي يقول :

أدين بدين الحب اني توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

وكان له ميل شديد الى النكتة الظريفه يرويها ويستمع اليها ضاحكاً ملء شدقيه . وبلغ به هذا الميل الى حد ان جمع نوادر النحاة ليعلم طلابه النحو وهو يدخل البهجة الى قلوبهم . وكتابه (الجديد) في القراءة مملوء بالطرائف . ومحاضراته في

اي موضوع كان – كانت ترصع بالنوادر تأتي في مواضعها لتكون شواهد على ما يريد ان يثبت في اذهان الناس .

وكان عقله كبيراً كبر ادبه . لا يطغى احدهما على الآخر . كان يداوم المطالعة في كتب التربية والاخلاق والاجتماع والفلسفة . وكان يميل الى المفكرين العقليين الذين تجردوا من الاهواء ونظروا الى مشاكل الحياة نظراً علمياً محضاً ، امثال برتراند رسل وجوليان هكسلي . وكانت له مقدرة على تشقيق المباحث وتجريدالفروع من الاصول وضبط جزئيات الموضوع في نظام منطقي متسلسل . ومن هنا جاءت كتبه المدرسية قائمة على اصول علمية صحيحة ويرى المنصفون ان كتابه « الجديد » في تدريس مبادىء القراءة من اجود الكتب الحديثة او ربما اقربها جميعاً الى الجودة .

وكان صاحب اجتهاد في النحو العربي يدعو الى تجديده وتيسيره بتحكيم القاعدة العامة واشاعة القياس وفتح باب الاجتهاد . وكان يرى اللغة ملكة لا صناعة ، وسليقة لا تكلفا . وسبيل حذقها القياس لا الحفظ ، والمران لا التقليد ، وطبق ذلك في كتابين من كتبه . في (الجديد) الذي ادخل فيه القواعدبتحويل الجمل من المذكر الى المؤنث ومن المفرد الى الجمع وبالعكس دون ان يشعر الطفل انه يدرس نحواً . وفي كتابه (وعليه قس) الذي وضع فيه نماذج ودعا الى القياس عليها دون شرح .

وكان ينظم الشعر في بعض الاحيان . رثى زوجته (ام سري) بقصيدة طويلة فاضت عن قلبه . ونظم المقطوعات القصيرة تملحاً . وكان احب الشعراء اليه ابو الطيب المتنبي حتى اطلق عليه اصدقاؤه في عهد الشباب (أبا الطيب) . وسرّ حبه إياه التقاؤهما على عزة النفس والكرامة والكبر على الدنيا . وكان يستهويه الاسلوب السهل الممتنع في الشعر والنثر ، والمعاني الانسانية المحلقة في عالم المثل العليا . ولذا أعجب بأدباء المهجر ، وتوكدت المودة بينه وبين المفكرين الاحرار امثال منصور فهمي ومصطفى عبدالرازق وطه حسين وامين الريحاني . كان اكره شيء اليه الصغار والتذلل والرياء . ومن اجل ذلك بصق على الدنيا مرة من طائرة زراية بالنفوس الصغيرة التي ترضى الهوان وتقيم على الضيم .

★

ان آثار السكاكيني التي خلفها قليلة . منها (١) الاحتذاء بحذاء الغير (القدس ١٨٩٦) (٢) مطالعات في اللغة والادب (القدس ١٩٢٠) (٣) فلسطين بعد الحرب الكبرى (القدس ١٩٢٥)

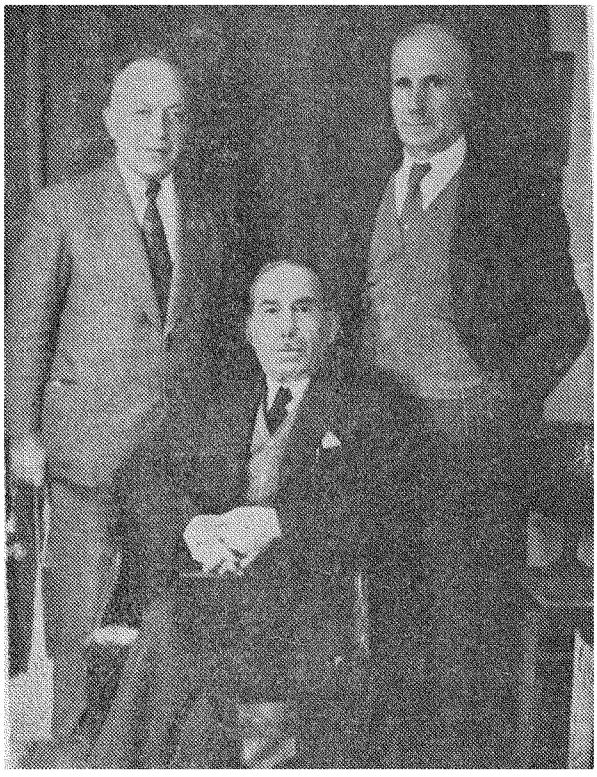

صورة تذكارية للاستاذ خليل السكاكيني (الى اليسار) والاستاذين عيسى العيسى وفرج فرج الله

(٤) سريّ (القدس ١٩٣٤) (٥) حاشية على تقرير لجنة النظر في تيسير قواعد اللغة العربية (القدس ١٩٣٨) (٦) لذكراك (القدس ١٩٤٠) (٧) وعليه قس (القدس ١٩٤٣) (٨) ما تيسر – جزءان (القدس ١٩٤٣ ، ١٩٤٦) (٩) الجديد – خمسة اجزاء (١٠) مقالات نشرت في المجلات والجرائد ومباحث لغوية قدمها الى مجمع اللغة العربية في القاهرة .

وادبه – كما يلاحظ في معظم هذه الآثار – أدب مقالات . ويرجع ذلك الى ثلاثة اسباب . الاول : انصرافه في اثناء اقامته في بيت المقدس الى التربية والتعليم في المدرسة (الدستورية) التي أسسها عتب الدستور ، وفي مدرستي (النهضة) و (الامة) اللتين اشترك في تأسيسهما ، وفي (كلية المعلمين) الحكومية . ثم في تفتيش اللغة العربية في مدارس الحكومة . وهذا النوع من العمل يجعل ميدان التأليف ضيقاً . والثاني : تغيبه عن وطنه في امريكا والقاهرة ودمشق مجاهداً او مكافحاً في سبيل العيش . والثالث : ظروف فلسطين القلقة التي استمرت منذ الاحتلال الى المحنة التي شردته عن وطنه الذي اخلص له في جميع ادوار حياته وكافح في سبيل حريته .

موت الفلاح محمود

... ومن الظلمة ، عبر الحقل ، غنّت قُبّره
وخبت في مسجد القرية ، اضواء الشموع
وتدلى رأسُ «محمودٍ» : «ينابيع الربيع
أمّيَ الأرض ! ينابيع الربيع
نضبت في قلبيَ الباكي ، الصديع
وزهورُ المقبره
وحجار القنطره
في طريق الحقل ما زال ، وما زال صديقي
« يوسف الأعرج » يستجدي ، كشحاذٍ عريق
ورغيفُ الخبز ، والمحراث في زاوية الكوخ العتيق

والدروب الصامته
وظلال السنديان المائته
حول رأسي – أمّيَ الأرض – تحومُ
والنجومُ
واغاني طفلتي الصغرى ، تحومُ
حول رأسي .
وبنفسي
مسجدُ القرية ، والمحراثُ ، والحقل يموتُ
وصديقي « يوسف الأعرج » والصمت المقيتُ

بيروت

عبد الوهاب البياتي

ويلاحظ في آثاره اتجاه الى الابحاث اللغوية والأدبية . وهو الاتجاه الذي سار فيه انسياقاً مع المهنة التي اختارها ، والذي اوصله الى عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٤٧ . وهذه الآثار – وان كانت تمثل ناحية من نواحي نشاطه – لا تعطي صورة كاملة عن شخصيته . فأدبه الذي يصور نفسه الانسانية النبيلة ، المتعالية عن السفساف والصغار ، المبرأة من الهوى والضلال ، المفعمة بنوازع الحب والخير المستر شذة بنور العقل في سلوكها ، هذا الأدب عاش معه ومات معه . ولم ينقص السكاكيني البيان لتصوير ذاته ونزعاته المثالية . ولم تعوزه الشجاعة الادبية . ولكن هي طبيعة الظروف التي احاطت به شاباً وشيخاً ، وحتمت عليه ان يواري آماله وآلامه ، ويكبت نزعاته ، ويكبح ثوراته العقلية والنفسية . ونقول انصافاً للتاريخ : إن السكاكيني ضحى كثيراً من طموحه ورغباته ، وألزم نفسه كثيراً من القيود ، في سبيل اداء واجبه نحو أسرته التي احبها حباً بالغ الحد .

ومع ذلك كله كان السكاكيني مربياً ومعلماً من الطراز الاغريقي القديم . كانت أحاديثه دروساً ، ومحاوراته حكماً وعبراً ، ومجالسه حلقات للمناظرة ، وهؤلاء المعلمون يطبعون نفوسهم في نفوس تلاميذهم ويكتبون آراءهم على صدورهم . ولا اعرف احداً جالس السكاكيني ، ولو مرة ، الا خرج بزاد من المثل الانسانية الكريمة والأدب الرفيع . فأي اثر مطبوع او مخطوط اعظم من هذا الأثر العظيم المستور ؟

لو ظهر السكاكيني في امة تعرف للمفكر مقامه ، وفي ظروف تكتمل فيها المواهب ، وفي احوال تكون فيها تكاليف الحياة هينة يسيرة ، لرأينا فيه كاتباً من طراز الكتاب الغربيين المبرّزين . ومع ذلك فان النسمات التي هبت من اعماق هذه النفس الخيرة الكريمة تملأ جونا ، وستملأه مدة طويلة من الزمن ، عطراً شذيا تطيب في جوه الحياة المملوءة بالخبائث . وهذه رسالة الأديب الحق التي حملها السكاكيني مدة تزيد عن نصف قرن .

اسحق موسى الحسيني